

أصول الترسل الأدبي في المغرب العربي

The origins of literary transmission in the Maghreb

أنيسة بن جاب الله

جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي (الجزائر)، anissa.bendjaballah@univ-oeb.dz

تاريخ الاستلام: 2023/08/07 تاريخ القبول: 2025/05/08 تاريخ النشر: 2025/12/29

ملخص:

تبحث هذه الدراسة في أصول فن نثري عريق هو فن كتابة الرسائل الأدبية؛ حيث عرف هذا الفن في المشرق العربي فكانت له أصوله وقواعده وأساليبه اللغوية الخاصة، وتلقي هذه الدراسة الضوء على بدايات هذا الفن في بيئة المغرب العربي ورواجه كلون أدبي جديد بين أدباء المغرب. وتتطرق إلى أبرز أعلامه في هذه البيئة وكذا مجارته لأساليب ولغة الترسل العربي المشرقي، وتكشف عن أهم المواضيع التي تضمنتها رسائل الأدباء المغاربة في بدايات تناولهم لهذا اللون الأدبي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين. كلمات مفتاحية: الترسل؛ الرسائل الأدبية؛ المغرب العربي؛ أدب المغرب العربي؛ الفنون النثرية؛ القرنان الرابع والخامس للهجرة

Abstract:

This study examines the origins of ancient prose art, which is the art of writing literary letters. Where this art was known in the Arab East, so it had its own origins, rules, and linguistic methods, and this study sheds light on the beginnings of this art in the environment of the Maghreb and its popularity as a new literary color among the writers of Morocco. It touches on his most prominent figures in this environment, as well as his adherence to the methods and language of the Levantine Arab transmission, and reveals the most important topics included in the messages of Moroccan writers in the beginnings of their dealing with this literary color during the fourth and fifth centuries AH.

Keywords: transmission; literary messages; the Maghreb; Maghreb literature, prose arts; the fourth and fifth centuries of migration.

مقدمة:

ازدهر فن الترسل عند العرب منذ عهود قديمة وذلك لحاجة هؤلاء إلى وسائط التواصل المختلفة فيما بينهم، ويعد هذا الفن بكل أنواعه الوسيلة الأولى في قديم الحضارة العربية التي تحقق التواصل بين الخلان وبين المسؤولين وبين الدول والإمارات وبين من باعدتهم المسافات وبين من باعدتهم القطيعة والمخاضات، وكذلك بين أهل العلم والأدب... وقد كان مجئ الإسلام سببا في اتساع هذا الفن وتطوره نتيجة الاطلاع على الحضارات الأخرى وظهور الحاجة إلى الكتابة الديوانية وغيرها وكذلك اتساع دائرة العلوم العربية والحاجة إلى التأليف فيها...

ولما كان لهذا الفن الأهمية والمحورية في حياة العرب أولوه عنايتهم وجعلوا له معايير فنية لا يحيد عنها مُنشئ الرسالة؛ سواء أكان ذلك من حيث اللغة أم من حيث المعاني والعبارات أم من حيث الطريقة والبناء والطول والقصر. وقد ازدهرت هذه الصناعة في المشرق حتى أصبح لها كتاب ومترسلون معروفون، وصنفت فيها الكتب التي تبين السبيل إلى صناعة الترسل؛ مثل كتاب: حسن التوصل إلى صناعة الترسل لابن أبي الثناء الحلبي، وغيره من المصنفات في موضوعات الإنشاء المختلفة وقد كان فن الترسل واحدا من هذه الموضوعات.

وكما امتدت علوم العربية وفنونها إلى المغرب العربي انتقل إليه فن الترسل أيضا، وقد كانت له خصائص فنية وموضوعاتية ميّزته عن نظيره في المشرق العربي، ونحن في مقامنا هذا سنتطرق إلى فن الترسل في المغرب العربي من خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن الرابع إلى الخامس الهجري؛ محاولين التعرف على أهم خصائصه ومميزاته الفنية والموضوعاتية. لكننا قبل ذلك سنحاول التقديم بشيء من التنظير لهذا الفن حتى نزيل اللبس عن مفهومه وكذا أشكاله أو أنواعه.

- مفهوم فن الترسل:

ينتمي جنس الرسالة الأدبية إلى فن الترسل؛ ومعنى الترسل ورد في المعاجم العربية مرتبطا بفعل الكلام بمعنى: التوقُّرُ والتفهّمُ والترفق من غير أن يرفع صوته شديدا... والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والاسم الرسالة (لسان العرب). فمعنى الإرسال والترسل ارتبط بفعل الكلام المنطوق، وهو أيضا يقتزن بالكلام المكتوب من هذا المعنى؛ حيث يتميز فن كتابة الرسالة بالتوقُّر في اللغة والأسلوب والتفهّم والترفق مع المرسل إليه، والرسالة في مضمونها توجيه لكلام ومشاعر من طرف إلى طرف آخر.

والترسل في الاصطلاح هو: "من فروع علم الإنشاء وجزء منه، وهو المراسلة بين الناس، وكتابة الرسائل المعروفة، وغدا فنا قائما بذاته يعتمد الأسلوب الرصين ولا سيما في ديوان الرسائل بين الأمراء. وأُلفت في هذا الفن كتب تعنى بالكاتب والمكتوب والمكتوب إليه، وحددت فيها المصطلحات الخاصة بالملائمة لكل مقام، ولا يجوز التغاضي عنها أو إهمالها. (التونجي، 1419هـ - 1999م، صفحة 243)"

والرسائل حسب وظيفتها أنواع؛ منها الرسمية الصادرة عن الدواوين التابعة للنظام الحاكم، وتسمى بالرسائل الديوانية أو الإدارية، ومنها الرسائل التي تكون بين الناس بمختلف طبقاتهم وتوجهاتهم، وتسمى الرسائل الإخوانية؛ هذه الأخيرة التي تتميز بتعبير أصحابها عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وهناك نوع آخر يسمى الرسائل الأدبية؛ وهو الذي يكون بين أصحاب الأدب؛ فتكون لغته رصينة مفعمة بالجمالية الأدبية، كما تتخلله الاقتباسات المتنوعة، والرسائل الأدبية مفعمة بالمشاعر والأحاسيس؛ فهي بالأساس رسائل إخوانية بين أدبيين، وما يميزها أيضا هو موضوعاتها التي تميل إلى العلمية أو الموضوعية أكثر من المشاكل الحياتية أو الشخصية. وعن مفهومها نستدل بقول شوقي ضيف: "... هي التي تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير، حتى لا تسقط في مهاوي الشر. (ضيف، صفحة 502)"

والنوع الأخير؛ أي الرسائل الأدبية هي موضوع حديثنا الذي سنتطرق فيه إلى الرسائل الأدبية في المغرب العربي خلال مرحلتين مختلفتين هما: مرحلة الحكم العبيدي ومرحلة الحكم الصنهاجي.

– الرسائل الأدبية في عهد العبيديين:

ارتبط فن الترسل في القرن الرابع الهجري أو في عهد العبيديين بنمط الكتابة الديوانية؛ حيث أدت الظروف السياسية والمذهبية إلى الاهتمام بالرسائل الرسمية الصادرة عن ولاة الأمور والقادة والملوك وحتى النائرين على الحكم العبيدي آنذاك.

وقد اهتم كُتّاب الرسائل الديوانية بالشكل العام الذي ميز هذه الرسائل في المشرق العربي؛ ف«جاء النثر الإداري متوافقا مع روح العصر الذي كانت تحياه الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء، فالنصوص التي حفظت لنا تمثل قطعا أدبية لا تقل عن مثيلاتها في المشرق من إغراق في التألق اللفظي، ومن إغراق في الصنعة والتكلف، إلى الاستخدام المبالغ فيه للمحسنات البديعية.

هذا مع التوسع في استخدام الخصائص التي تميّزت بها الكتابة الفاطمية مثل استخدام الألفاظ الشيعية الإسماعيلية المعتادة: على غرار: ولي الله، والإمام، وصلوات الله عليه... الخ، وكذلك الإغراق في اسباغ صفات الإجلال والتعظيم للخليفة..» (حواله، 1421هـ - 2000م، صفحة 177)

نافست الرسائل الرسمية في المغرب العربي مثيلاتها في المشرق العربي، وقد كانت بلا "رب أفضل حظاً من غيرها من ألوان التعبير الأدبي؛ فالرسائل الإخوانية وهي لون من أعذب ألوان النثر الفني، لم تكن متداولة آنذاك، مع أنّ العصر لم يخل من الكتاب والأدباء واللغويين المرموقين، ومن غير المستبعد أن يكون الإهمال قد لفّ هذا الجانب الممتع من النثر مثلما لفّ غيره." (حواله، 1421هـ - 2000م، صفحة 179)، كما أن الظروف السياسية والمذهبية المضطربة آنذاك جعلت الاهتمام منصبا على الرسائل الرسمية دون الرسائل الإخوانية والأدبية، وقد يكون هذا سببا في عدم حضورها في العهد العبيدي.

– الرسائل الأدبية في عهد الصنهاجيين:

توافرت أسباب الاستقرار فانتسعت وسائل التعبير عن الروابط والعلاقات بين مختلف فئات المجتمع في المغرب العربي، وكان ذلك على أيام الحكام الصنهاجيين الذين تيسّرت أسباب الحياة طيلة فترة حكمهم، وقد كانت الرسائل وسيلة نثرية فنية تبادلها الناس وتأنقوا في كتابتها؛ "ومن البديهي أن الحاجة إلى المكاتبات الرسمية لا يمكن أن تنتفي في ظل دولة كبيرة مثل الدولة الزيرية، كما أن الرسائل الإخوانية لا يمكن انقطاعها في هذا العصر الذهبي للأدب." (حواله، 1421هـ - 2000م، صفحة 188) وقد أكد الباحثون والمؤرخون على أن العصر الصنهاجي كان حافلا بالكتابات الفنية، خصوصا في عصر الحاكم "المعز بن باديس الصنهاجي"؛ حيث أنّ «الأخلاق الحميدة التي فطر عليها المعز والتربية الصحيحة التي تلقاها من حالة صغره قضيا عليه باختلاط العلماء وتقريب الأدباء واختيار صحبتهم والأنس بمجالستهم عمّن سواهم لا سيما أن العصر والوسط يساعدان على ذلك؛ ففي المدة التي ساس فيها أمور إفريقية – ما يزيد على أربعين عاماً – كان المعز لا يسمع بعالم جليل أو شاعر فصيح إلا ويُدنيه من حضرته ويضمّه لخاصته [...] وقد احتوى هذا البلاط على أكثر من مائة شاعر بليغ» (عبد الوهاب، صفحة 72)، وهذه الحركة الأدبية لم تخل من الكتاب البارعين الذين أنشأوا في فن الترسل، وقد ضمتهم دواوين الحكام فكانت تأليفهم في الرسائل متنوعة بين الرسائل الرسمية والإخوانية والأدبية، نذكر من هؤلاء أشهرهم: الأديب والشاعر

عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي (ت 405هـ)، ونذكر أيضا أبا إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالريق القيرواني (ت 425هـ)، والكاتب أبو الحسن علي بن أبي الرجال التاهري الشيباني (ت 425هـ)، ومنهم أيضا أبو علي بن رشيقي القيرواني (ت 463هـ) وغيرهم كثير.

وأشهر ما وصلنا من نماذج الرسائل الأدبية عن تلك الفترة ما وَجَّهَهُ بعض الكتاب من رسائل إلى بعض الأمراء، " وكثيرا ما كان العلماء يؤلفون بإيعاز من أمير كبير فينالون بهذه الصورة جزاء عظيماً" (عبد الوهاب، صفحة 54)، وقد كان ابن أبي الرجال الشيباني رجل علم وأدب وكانت له حضوة كبيرة عند الصنهاجيين، كما أنه شمل كثيرا من الشعراء والأدباء بفضلهم وكرمه، مثل الأديبين ابن رشيقي القيرواني وابن شرف الجذامي القيرواني، " وهذا ما دفعهم إلى أن يهدي إليه البعض منهم شيئا من مؤلفاته الأدبية جريا على العادة التي كانت شائعة وقتذاك".

وأولى تلك الرسائل كانت من ابن رشيقي القيرواني، وقد ألف كتابه "العمدة" وأهداه إلى ابن أبي الرجال الشيباني وبعث إليه برسالة على هذا المؤلف سار فيها على نمط الرسائل الأدبية في المشرق؛ حيث ابتدأها بالبسملة ثم الصلاة والسلام على النبي محمد وعلى آله وصحبه، وحمد الله على فضله ومنه. وأسلوبه فيها تشغله الصنعة اللفظية وتكرار المعاني في قوالب مختلفة؛ فالصلاة على النبي محمد تكررت في قالبين متتاليين، قال: " وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، الحمد لله أهل الحمد ومستحقه، وصلاته على صفوته من خلقه، محمد خيرته، وعلى أبرار عترته، وسلم تسليمًا كثيرا" (القيرواني، 1422هـ، 2001م، الصفحات 1-9)

وانتقل بعد عبارة الرسائل المعروفة "أما بعد" إلى مدح المرسل إليه وإعلاء مكانته العلمية والأدبية، وتبيان فضله الكبير على أهل العلم والأدب، وقد ذكر اسمه في الرسالة بعد زخم كبير من الصفات المغالية في وصفه، مثل قوله: " فإن أحق من جنى ثمر الألباب، واقتطف زهر الآداب، متنزها في عقول الحكماء، متفكها في أقاويل العلماء، بالغا بمهته أعلى المراتب، خاطبا لنفسه أسنى المطالب، مستقرا في أرفع ذروة، متمسكا بأوثق عروة، من عرف للعلم حقه وفضله، وسلك به طريقه وسبله، وأكرم في الله مثواه ونزله، وخص بالقرب من ذويه وأهله، فاستوجب من جميل الذكر، وجزيل الذخر، ما هو أزين في الدنيا وأبقى في الأخرى: كالسيد الأجد، والفد الأوحده، حسنة الدنيا، وعلم العليا، وباني المكارم، وآبي المظالم، رجل الخطب، وفارس الكتب: أي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب، زعيم الكرم، وواحد الفهم..." (القيرواني، 1422هـ، 2001م)؛ فنحن نرى في هذا النص

طول الكلام الذي تكررت أغلب معانيه في قوالب مختلفة تمدح هذا الرجل وتثني على فضائله المتعددة، وكان ذلك بأسلوب معلن في التأنيق اللفظي والتكلف بحشو الكلام بألوان من البديع وكذا تقليب الجمل ذات المعنى الواحد. إلا أن في هذا الأسلوب إظهار للانبهار الشديد بتلك الصفات والامتنان بما قدمه وما يقدمه هذا الرجل لابن رشيق المرسل؛ فهو في نص رسالته يفصح عن تشريف هديته - أي كتاب العمدة - بقبول الشيباني لها وثنائه عليها، يقول: "ثم إني لا أظهر حرفاً من كتابي هذا إلا عن أمره وبعد إذنه لأكون به أقوى ثقة، وله أشد مقة، فإن وقع منه بموقع، وحلّ من قبله في موضع، بلغت الإيرادات ورجوت الزيادات" (القيرواني، 1422هـ، 2001م)، الغاية لابن رشيق من هذه الهدية إذا هي تشريف كتابه بشهادة رجل كأبي الرجال الشيباني حتى ينال كتابه الشهرة وعلو القيمة، وأسلوب الرسالة المنمق والمختارة ألفاظه بدقة لمدح الشيباني أفضل السبل لينال ابن رشيق مبتغاه عند هذا الرجل.

وإن من أبرز خصائص الرسالة الأدبية في رسالة ابن رشيق هذه ما يلي:

- الافتتاح بالبسملة والصلاة والسلام على النبي محمد وعلى آله وصحبه.
- استعمال العبارات الشائعة في الرسائل: "أما بعد" والختم بطلب التوفيق والهداية من الله عز وجل.
- ذكر اسم المرسل إليه وإظهار العواطف والأحاسيس تجاهه: "وطال اشتياقي إلى تلك الطلعة الكريمة"، "نفضت جراب صدري"، "فمثلت له نفسي وأهديتها له، ومثلت بها حقيقة بين يديه، إذ كانت الأنفاس منوطة بالأنفس".
- إظهار الإجلال لمن هو أكبر قدراً من خلال عبارات: "الحمد لله الذي اختصه بالجلالة، واستخلصه لشرف الحالة.."، "أطال الله بقاء السيد محروس النعمة، موهوب النعمة.."، "زاده الله تعالى سموا"، "خلد الله ملكه"، "أدام الله عزه".
- الاستعانة بالاقتراسات المتنوعة في تنميق الموضوع، مثل: "لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم" إن من الشعر لحكماً" وروى "الحكمة"، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه..، "ومن الشعر" ومن وجد الإحسان قيذاً تقيداً.."
- ترتيب أفكار الرسالة وعرضها متسلسلة حتى الوصول إلى خاتمتها، وخاتمة الرسائل تكون غالباً بذكر الله أو الدعاء وطلب التوفيق والهداية منه عز وجل.

استعمال لغة فصيحة جزلة مثقلة بالصنعة اللفظية حتى تشد انتباه القارئ إلى عجيب صنعتها واتفاق فواصلها.

ولعل هذه الرسالة هي أكمل ما وصلنا من فن الترسل عن ابن رشيق القيرواني؛ فقد ضاع جزء كبير من تأليفه النثرية وما وجد منها لم يكن يمثل هذه الرسالة طولاً واشتمالاً على المشاعر والأحاسيس؛ مثال ذلك ما وجدناه في رسالته الموسومة ب: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب" وقد كتب ابن رشيق هذه الرسالة إلى صديقه أبي الحسن علي بن القاسم اللواتي، وكان سبب تأليفه لها أنه ادّعى عليه يوماً من لا خلاق له بأنه سرق معنى الارتعاد في شعره من معنى الارتعاش في شعر عبد الكريم، حيث دلّل ابن رشيق على أنّ ما ذهب إليه هذا المدّعي هو فهم خاطئ لعملية الإبداع، وأنّ ليس في شعره أيّ لون من ألوان السرقة المعروفة، ليسترسل بعدها في تفصيله لقضية السرقات الشعرية. وقد قدم لها ابن رشيق برسالة مختصرة وجهها إلى ابن القاسم اللواتي، ولعل السبب المباشر في اختصار هذه الرسالة وعدم اهتمام ابن رشيق فيها بالتأنق اللفظي والتكرار والإسهاب، هو الغرض منها؛ حيث كان ابن رشيق أثناء كتابتها في موقف أقرب فيه من الاضطراب أكثر من الهدوء، وهو يردُّ على من اتهمه بالسرقة من شعر النهشلي، ويوضح للمرسل إليه سلامة شعره من السرقة. لكن هذا لم يمنع من أن تشتمل الرسالة على مقومات الرسالة الأدبية، وهذا نصّها، قال ابن رشيق:

" بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، كتب الشيخ أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي إلى أبي الحسن علي بن القاسم اللواتي رحمهما الله تعالى، أما بعد: أمتع الله إخوانك ببقائك، وكفاهم الأسواء فيك، وجعلني من بينهم الفداء لك، وأسأل الذي شرح للعلم صدرك، وعمر بالذكر قلبك وبسط بالحجة لسانك وبالخير يدك وقرن بالسداد قولك وبالتوفيق عملك، أن يُجْري مُناظِرَكَ في حُسن الأدب على رِسْمِكَ، ويجعل الإنصاف كما تؤثر حكماً بينك وبين خصمك.

بلغني أعزّك الله تعالى، أستحسن معنى البيت من مريّة الأمير سيدنا أبي منصور نظر الله وجهه وهما الأخيران من هذه الأربعة الأبيات ذكرت ما قبلهما لتعلّقه بهما: [من الطويل]

ألم ترّهم كيف استقلّوا ضحىً إلى كنفٍ من رحمة الله واسع
أمام خميس ماج في البرّ بحره يسيرُ كمتني اللجّة المتدافع
إذا ضربت فيه الطُّبول تتابعت به عذبٌ يحكي ارتعاد الأصابع

تجاوب نوح بات يندب شجوه وأيدي ثكالى فوجئت بالفواجع (القيرواني، الديوان تح: محيي الدين ديب، 1418هـ - 1998م، صفحة 93)

وأن بعض من لا خلاق له في الأدب ولا معرفة له بحقائق الكلام عارضك فيهما بالطعن ونازعك معناهما بالجهل وأدعى عليهما ضرباً من السرقة، ونوعاً من الأخذ ولم تؤتْ أَيْدِكَ الله من قصر لسانولا ضعف حجة وبيان، لكنما أُتيتك من سوء فهم صاحبك وقلة إنصاف مشاغبك لأن المعنى المأخوذ بزعمه إنما هو قول عبد الكريم ابن إبراهيم النهشلي يصف ما يحدث عند اندفاع الجدول في الماء، من تلك الرغبة والنفاحات: [من المنسرح]
قد صاغ فيه الغمام أذمعه دُرّاً ورّاه جدولٌ غُمُر

بَحْيَشُ فيه كأنّما رَعَشَتْ إليك منه أنامل عَشْرُ" (القيرواني، قراصة الذهب في نقد أشعار العرب، تح: الشاذلي بويحي، 1972، الصفحات 12-14)

استهل ابن رشيق رسالته بالبسملة لكن الموقف الذي كان بصدد الكتابة فيه جعله يتجاوز الصلاة والسلام على النبي محمد، فابتدأ كلامه بدعاء مؤداه طلب العون والتسهيل من الله سبحانه وتعالى حتى يقدر على إثبات سلامة شعره من الادعاء المزعوم، وبعد ذلك ذكر اسم المرسل إليه وأردفه بصفات من المدح فيه، مترقفاً في مدحه؛ فذكر الرحمة على أبيه وجده، ثم استرسل في صفات المدح التي أوصلته إلى موضوع الإنصاف في الحكم، كما ذكر صلة المخاطب بالعلم والأدب، والملاحظ على هذه الرسالة عدم الإسهاب في صفات المدح؛ حيث اقتصر ابن رشيق على ما يُعينه منها في طرح موضوعه المتعلق بإنصافه فيما أُثِمَ به من السرقة.

وقد طرح الموضوع مع الشواهد والأشعار، وذكرنا نحن جزءاً من محاجة ابن رشيق في موضوع السرقة، هذا الأخير الذي استطال حتى أصبح كتاباً في مفهوم السرقات الشعرية وأنواعها وكل ما اتصل بها.

وقد رأينا استعانة ابن رشيق في رسالته هذه بعبارات تستعمل في مثل هذه الرسائل، مثل: أما بعد، أعزُّكَ الله تعالى، أَيْدِكَ الله..، أما أسلوبه فيها فقد كان معتمداً على اللغة البدئية وإن تحقّف منها لاختصاره في مضمونها واهتمامه بموضوع السرقة الشعرية.

وقد ورد أن ابن شرف الجذامي القيرواني هو الآخر أهدى ابن أبي الرجال الشيباني رسالته الموسومة ب: أعلام الكلام، لكن في تقديمه لها لم يذكر لنا ذلك ماعداً إشارته إلى أنها جهد بذله

وقدّمه إلى شخص عزيز عليه، فقال: "لكن نية القاصد وسمّة المقصود، أعانا ذا الود على إتحاف المودود، والله أسأل توفيقاً، ينهج لنا إلى الرشد طريقاً" (القيرواني ١، 1344هـ-1926م، صفحة 14)، ولم تظهر في هذه المقدمة خصائص الرسالة، فقد كان ابن شرف يُعرّف بمصنفه هذا ويوضح سبيل تأليفه، وكذا يذكر مضامينه.

ومن الرسائل الأدبية الماثورة عن ذلك العصر ما نُسب إلى الكاتب والشاعر أبي علي الحسن بن محمد التميمي التاهرتي، المعروف بابن الريب (ت 420 هـ)؛ حيث ساقّت كتب الأخبار والتاريخ رسالة له بعث بها "إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمان بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم" (المقري، 1388هـ-1968م)؛ فمضمون هذه الرسالة أدبي تكلم فيها ابن الريب عن تخليد العلماء والأدباء ذكرهم من خلال كتابة سيرتهم الذاتية، أو أن يكتب غيرهم سيرتهم وحظهم من العلم والتفوق، قال: "ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس، فألقوا دواوين بقي لهم بما ذكر مجدّد طول الأبد" (المقري، 1388هـ-1968م)، وهو في قوله هذا ذو غيرة على علماء المنطقة (المغرب العربي وبلاد الأندلس) من أن تُنسى فضائلهم ويطوي ذكرهم النسيان بمجرد انقضاء عهدهم.

وقد نبه ابن الريب أهل الأندلس من تقاعس كُتّابهم ومؤرخيهم عن التأليف في مآثر رجال العلم والحكم والقضاء وحتى الفرسان والشجعان، لما في ذلك من تقصير في حقهم من جهة؛ فالكتابة في تاريخ مثل هؤلاء تحت أهل البلد على التميز والظهور بالإنجازات المختلفة؛ لأن الكتاب "يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته، فشجع الجبان، وأقدم الهيبان، وثبّة الخامل، وعلم الجاهل، ونطق العبيّ، وشعر البكيّ، واستنسر البغات، وتثعن الحفاث، فتنافس الناس في العلوم، وتكاثر الحذاق في جميع الفنون" (المقري، 1388هـ-1968م، صفحة 157). وقد ركّز ابن الريب في موضوعه هذا على خطأ الكاتب ابن عبد ربه الأندلسي الذي راح يخلد مآثر العرب في المشرق ويذكر أخبارهم وأشعارهم في كتابه "العقد الفريد"، وفي ذلك انتقاص لقدرة علماء وأدباء الأندلس الذين تميّزوا في كل الميادين ولم يكونوا أقل حظاً في ذلك التميز من أهل المشرق؛ فالأولى له أن ينشغل بأخبار أهل بلده، قال ابن الريب: "... كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم، لا سيّما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه، أكثر الحز وأخطأ المفصل، وأطال الهز لسيف غير مقصّل، وقعد به ما قعد بأصحابه من

ترك ما يعينهم، وإغفال ما يهمهم، فأرشد أخاك أرشدك الله واهدو هداك الله إن كانت عندك في ذلك الجليّة، وببديك فصل القضية." (المقري، 1388هـ - 1968م، صفحة 158).

مضمون هذه الرسالة فيه توجيه ونصح أخوي من أديب في المغرب العربي إلى آخر في الأندلس، وقد رافق ذلك المضمون عاطفة الكاتب المتراوحة بين الغيرة على مآثر علماء المغرب والأندلس، والحرص على إرشاد الكتاب في الأندلس إلى الوجهة السليمة التي تنفع البلاد والعباد. وشكل رسالة ابن الريب لم يخرج عن نمط الرسالة الأدبية آنذاك؛ وإن لم نجد بسملة أو صلاة وسلاماً على النبي محمد إلا أننا نضن أن صاحب الكتاب قد تجاوزها ولم يذكرها؛ لأن صاحب الذخيرة أيضاً ساق نص هذه الرسالة وقد حذف جزء أكبر من بداية الرسالة (الشنتريني، 2000م، صفحة 112)، ولعل سبب ذلك هو طول الرسالة، أو أن البسملة والكلام الافتتاحي في الرسالة من البديهيّات التي يتجنّبها المؤرخون والكتاب مكتفين بموضوع الرسالة الأساس.

وقد تناول المرسل إليه بالتنويه فقال: "كتبْتُ يا سيدي، وأجلُّ عُددِي، كتب الله لك السعادة، وأدام الله لك العز والسيادة" (المقري، 1388هـ - 1968م، صفحة 156)، ونحن نرى أنه اختصر في ذكر فضائل المرسل إليه الشخصية، لكنه استعاض عن ذلك بذكر فضائل بلده الأندلس فقال: "وذلك أُنِي فكرت في بلادكم إذ كانت قرارة كل فضل، ومنهل كل خير، ومقصد كل طُرْفَةٍ.." (المقري، 1388هـ - 1968م، صفحة 156)

وقد ضمن الكاتب رسالته موضوعاً معيناً يخص المرسل إليه وكذلك أهل الأندلس عامة، وقد ختم رسالته بسلام المسلمين: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وقد جاءت لغة الكاتب متكلفة مزينة بألوان من البديع كمثل قوله: "وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وراتب على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صَنَّف، أن يعنّف، وإن أَلَّف أن يخالف، ولا يؤالف.."؛ فالسجع أكثر هذه المحسنات البديعية الموظفة بكثرة.

وقد استعانت لغته بأساليب مقتبسة من القرآن الكريم أو ألفاظ من المعجم العربي القديم من أمثال وحكم؛ مثل قوله: أو تحطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لأسمع من ببلدنا في القبور، ولسان صدق في الآخرين، نطق العبيّ، استنسر البغاث، تتعبن الحفاث... وهذه القوالب التعبيرية مما يزيد في قوة ومتانة لغة الرسالة.

ولا ننسى العبارات المتكررة في نصوص الرسائل مثل: كتب الله لك السعادة، أدام لك العز والسيادة، أرشدك الله، هداك الله، وهذه العبارات تمد جسورا من الود بين المتراسلين، ويعبر بها المرسل عن احترامه ومودته.

وقد عكست رسالة ابن الربيب هذه كل خصائص النثر الفني الذي بلغته من حيث الشكل، مع ما فيها من مضامين توضح حالة الحركة الأدبية في عصر الزيريين؛ حيث بلغ النثر أوج تقدمه وتطوره من ناحية الشكل بالدرجة الأساسية-على مقاييس التطور المعروفة آنذاك بالطبع (حواله، الحياة العلمية في إفريقية، 2، الصفحات 196-197)-، وليس هذا بالغريب على بيئة ازدهمت بالعلماء والأدباء والنائرين المجيدين.

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى أن الرسالة الأدبية في المغرب العربي تميزت بمضامينها التي عكست ازدهار الحركة الأدبية واهتمام الأدباء والمثقفين بكل ألوان الكتابة الفنية الشعرية والنثرية، واستعمالهم لأدوات اللغة العربية في مناسباتهم الأدبية.

وقد حافظ هؤلاء الأدباء والنائرون على قواعد فن الترسل التي شاعت في المشرق العربي، وسايروا أساليب ولغة الرسالة المشرقية، وخلفوا لنا نتاجا فنيا على درجة عالية من الجودة والفنية ينافس فن الترسل المشرقي.

المراجع:

1. لسان العرب. (بلا تاريخ).
2. ابن بسام الشنتريني. (2000م). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، ق1:1. 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
3. ابن رشيق القيرواني. (1418هـ - 1998م). الديوان تح: محيي الدين ديب. 1. بيروت: المكتبة العصرية، صيدا.
4. ابن رشيق القيرواني. (1422هـ، 2001م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هندراوي. 1. بيروت: المكتبة العصرية صيدا.

5. ابن رشيق القيرواني. (1972). قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تح: الشاذلي بويحي. الشركة التونسية.
6. ابن شرف القيرواني. (1344هـ—1926م). أعلام الكلام، تح: عبد العزيز أمين الخانجي. 1. مصر: مطبعة النهضة.
7. المقرئ. (1388هـ-1968م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس. بيروت- لبنان: دار صادر.
8. حسن حسني عبد الوهاب. (بلا تاريخ). بساط العقيق.
9. شوقي ضيف. (بلا تاريخ). العصر العباسي الأول. 10. القاهرة: دار المعارف.
10. محمد التونجي. (1419هـ-1999م). المعجم المفصل في الأدب. 3. بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية.
11. يوسف بن أحمد حواله. (1421هـ-2000م). الحياة العلمية في إفريقية، "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري. 1. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.
12. يوسف بن أحمد حواله. (بلا تاريخ). الحياة العلمية في إفريقية، 2.